بين تفصيح العامية وتعريب الفصحى

بقلم: عبد الكريم بكري

تولي المجتمعات المعا صرة أهمية ق صوى للغة المتداولة فيما بينها تســـتوي في ذلك المجتمعات المتقدمة والنامية ذلك لأن اللغة كاليد، والماء والهواء. لا ت ساويها أداة أخرى في تمكين الإن سان من ممارسة حياته، لذلك امتن الله على الإنسان بمنحه هذه الأداة المسيرة لأ شياء والأحياء فقال تعالى بعد ب سم الله الرحمن الرحيم: "الرحمان علم القرآن خلق الإن سان علمه البيان" صدق الله العظيم. ولقد ذهب اليونان مذهبا مغاليا في الاعتزاز بلغتهم والاعتراف بفضـــلها قال: جالينوس: إن لغة اليونانيين هي أف ضل اللغات لأن سائر اللغات إنما ت شبه نقيق الـ ضفادع. وا ستجاز اليهود الكذب والحلف على الباطل بغير العبرانية زاعمين أن الملائكة لا يعرفون غير ها ولم تبح اللغة العربية والدفع من شـــأنها فإنها لا تقف مع نظرة العلماء للغة قديما وحديثا.

وبســـبب انفراد وانزواء الأفراد والجما عات نتيجة لعوا مل تاريخية وجغرافية والتفاهم حول مفاهيم وتعابير يفرز ها الوضـــع الجديد ينتج ما يعرف بالعامية والفصـــحى وبســـبب من ذلك يتعاظم الـ شعور بخطر ات ساع الـ شقة بين المـ ستويات اللغوية لما يترتب عنه من سواء اتصال وتباعد فيما بين فئات الـ شعب الواحد، لذلك يحرص

أولو الأمر على أن تكون اللغة أداة قادرة على ربط الصلة مع مختلف طبقات الـ شعوب، وذلك يجعلها لغة مب سطة وجامعة معبرة مذ سجمة مع دورها الأ سا سي في إقامة ج سور التوا صل وتوحيد المـ شاعر الوطنية فيما بين أفراد الشعب الواحد.

وكما شـــهد هذا العصـــر تطورا كبيرا في وســـائل الإعلام الجماهيرية. فقد شهد أيضا تحولا في النظرة إلى المـستويات اللغوية باعتبارها قنوات يتم بوا سطتها التأثير في مـ شاعر الناس و سلوكهم وقناعاتهم، ونحن في عالمنا اللغوي العربي نجد أنفســـنا أمام لغة فر ضت تق سمها على التاريخ والجغرافيا وأ صبحت تربط بين شعوب تعّد بمآت الملايين...

وتعيش على مـ ساحة شا سعة الأطراف تمتد من المحيط إلى الخليج فهي من هذه الناحية عامل توحيد وتلاحم، وهي من أجل ذلك مؤهلة لأن تظل قوام الثقافة المشـــتركة والتاريخ الجامع لكل هذه الشـــعوب عبر الحقب والأزمان، ولكنها قبل ذلك لغة القرآن الكريم كتاب الله الخالد الذي تتجلى فيها مظاهر إعجازه وما كان للعربية أن تتمتع بهذا المزايا الروحية والفكرية لو لم تكن لغة القرآن الكريم.

وقد نرى أن أنباء هذه اللغة يشـــعرون بأنهم يملكون كنزا عز على كثير من الشعوب والطوائف التي تحاول أن تبدع لنفسها جوامع أو الروابط بأية صورة من الصور فكل التجمعات والكيانات التي تقوم هنا وهناك قائمة على أ سس متبعة اقت صادية أو ع سكرية ولا شيء

غير ذلك، وهي عوامل يمكن أن تزول أو تغير الحاجة إليها. إذا لا وجود للغة المشتركة وسيلة التواصل فيما بينها.

ولكن اللغة كائن حي يتطور على الـ سنة المتكلمين بها فينـ شأ عن هذا التطور اختلاف بين لغة عصر وعصر آخر وقد ينشأ عن هذا التطور كما وقع للعربية الفصـــحى ميلاد لهجات وأشـــكال في التعبير موازية للغة الأ صلية. وإنما لم تتأثر العربية الف صحى بعوامل البلى وتبدل الأزمنة لارتباطها بالقرآن الكريم منذ ما يزيد عن أربعة ع شر قرنا.

ولكون اللغة العربية حافظة ديوان العرب، فقد كفل الله" الحفظ العربية عندما كتب الحفظ القرآن الكريم قال الله تبارك وتعالى: " إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون" غير أن هذا لا يعني أنا ندعو إلى أن تظل العربية متحجرة في قوالب متصـــلبة أو نرميها بالجمود أو التخلف عن مواكبة التطور الذي عرفته البـ شرية، إذ سوف نرى أن جـ سور التوا صل والتلاقي لم تنقطع بين الف صحى والعامية منذ قديم الزمن مما أكسبهما الحياة والنماء ووسائل الدفاع الذاتية حيث أصبح من المـ سلم به عند أهل الاختـ صاص أن البيئة العربية قبل الإ سلام عاشـــت فيها لهجات مختلفة ولكنها ســـرعان ما توحدت على أعلى مستوى أي على المستوى الأدبي في لغة قريش التي استأثرت ميادين الأدب شعره وخطابه.

وقد ســـاعدها على الظفر بهذه الهيمنة عوامل كثيرة لا مجال لذكرها في هذا المقام ولقد جاء القرآن الكريم ليجسد هذه الوحدة،وهو كتاب الله الذي لا يتطرق إليه الشـــك وما ينبغي أن يناله التعبير أو اللحن، غير أن هذه الوحدة التي نزل بها القرآن لم تلغ لغات البيئات العربية بل جمعها في كل قائم على الجزء فحوى هذا النص الكريم ألفاظا وتراكيب ممثلة لتلك البيئات اللغوية وهكذا عرفت الســـاحة اللغوية في العصر الجاهلي مستويين من الاستعمال اللغوي، فهناك لســـان يخاطب الناس في حياتهم العامة ويتكلمونه بعفوية مطلقة. وهناك لغة أخرى هي التي تنصـــرف إليها كلمة "لغة" عند إطلاقها بعفوية وهي لغة أدب وشـــعر لا يؤتاها إلاّ من أدرك نواحي القوة والجمال فيها، نقول هذا لأن منهم لفريقا من دعاة العامية في عصرنا من يحول لك أمر اختلاف لغة العامة عن الفصحى حتى ليظن أننا في حاجة إلى مترجمين وقواميس مزدوجة عربية / فصـــحى حتى يفهم لغة أجداده والواقع يقول غير ذلك. فإن وجود لغة عامية بجانب الفصـــحى ليس بدعا في اللغة العربية وإنما هي ظاهرة موجودة في اللغة الحية الراقية. وذلك لأن جل الدراســـات الاجتماعية في البلدان المتقدمة قد أقامت الدليل على خطأ هذا الافتراض حيث تبين أن مســـتويات العامية في المجموعات الفرنســـية، والبريطانية وغيرها تختلف باختلاف المســـتويات الاقتصـــادية والثقافية ونجاح الطفل في المدارس يكون تبعا لذلك. وعلى أية حال فإن العامية والفصـــحى ما فتئتا متعايشتين في كل فترات التاريخ. وأن أرقى درجات الفصحى

يختلف باختلاف العصور و بقدرات المتمدرسيين فيها، و بالنسبة إلى اللغة العربية فإن كثيرا من الكلمات العامية المســـتعملة الآن ورثناها عن لهجات عربية قديمة من ذلك أنا نســـتعمل " آش و واش" وهي كلمة تفيد الا ستفهام بمعنى ماذا؟ لأنها منحوتة من أي شيء تحولت عن أ صلها لكثرة الا ستعمال. قال ابن يعيش وهو يف سر هذه الكلمة: "و المراد أي شيء وحذفوها تخفيفا" وفي ذلك يقول ابن خلدون:

و مازالت هذه البلاغة و البيان ديون العرب و مذهبهم لـهذا العهد و لا تلتفنّ في ذلك إلى حرفية النحاة أهل صـــناعة الإعراب القا صرة مداولتهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد. ذهبت، وأن اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع في أواخر الكلام من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه. وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم، وألقاها القصور في أفئدتهم و إلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب، لم تزل في مو ضوعاتها الأولى والتعبير عن المقا صد بتفاوت موجود في كلامهم لهذا العهد.

ولقد حاول الاســـتعمار الفرنســـي عندنا في الجزائر والمغرب العربي أن يحدث قطيعة في مؤلفات ســـماها: العربية المســـتعملة L'ARABE PARLEE ضـــمنها طائفة من النصـــوص الشـــعبية والكلمات العامية المبتذلة، وفرض ن صو صا أخرى سماها: العربية القديمة L'ARABE CLASSIQUE كما عرفت مواطن في العالم العربي مثل هذه المحاولات الرامية إلى صـــنع أو اصـــطناع لغة من أشـــتات الكلمات العامية. تبناها زعماء يزعمون الغبرة على اللغة

العربية من أمثال سلامة موسى في مصر، وأنيس فريحة في لبنان. ولقد ذهب الكيد ببعض المستشرقين إلى حد الدعوة، إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية(إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية) ولكنها محاولات لم يكتب لها النجاح والرواج والدوام، لسبب بسيط، ووجيه في آن واحد، وهو أن العامية في وضعها الراهن عاجزة على استيعاب الآداب الرفيعة. والمعاني العميقة. فهي عبارة عن ثوب البيت عند رفع التكليف كما كان يقول د/زكي مبارك-رحمه الله-. و الدليل على ذلك أن سعيد عقل أحد المشيعين لسيادة العامية كتب مقدمة بالعامية لديوان شعري بالعامية كذلك لصاحبه ميشال طرّاد المطبوع سنة 1947 فماتت المقدمة مع الديوان يوم صدوره.

نخلص من هذا القول بأن هناك لغة واحدة بالمعنى العلمي و الأكاديمي للكلمة هي اللغة الفصحى، وأن هناك لغة عامية مرتبطة بالفصحى، وليست مستقلة عنها. وإنما هي أداة تعبير تتناسب مع مواضيع، ومستويات اجتماعية بسيطة.

وما يجب أن نؤيده ونتفق فيه مع دعاة الاعتناء بالعامية هو وجوب تقريب الشقة بين العامية والفصحى بكل الوسائل التثقيفية والبيداغوجية بحيث تتمكن الأولى من أن تقترب من الثانية، فتصبح مرآة عاكسة للمستوى الثقافي الذي وصلت إليه الشعوب العربية بمختلف مستوياتها الاجتماعية ولا بأس في أن ندفع بكلمات من الفصحى إلى ميدان التخاطب والتعامل والحوار ومختلف أشكال التعبير

الفني لا بأس في أن تخفف هذه الكلمات من بعض الـ ضوابط و القيود المفرو ضة على اللغة الر سمية ولعل خير مثال تقدمه لـ صور التقارب بين العامية والفصحى هو ما يحدث في بلدنا الجزائر. حيث نلاحظ أن عامية الجزائر أثناء الفترة الا ستعمارية لي ست عامية اليوم إذ ماتت فيها كثير من الكلمات الدخيلة، وحلت محلها كلمات عربية فصـــيحة نتيجة لانتشار التعليم وتوسع شبكة الإعلام السمعي والبصري وشيوع كثير من الكلمات والمصطلحات الإدارية والسياسية والاجتماعية التي فرضها واقع الجزائر العربية المستقلة.

يقول توفيق الحكيم وهو يتحدث عن اللغة المناســـبة لكتابة مســـرحياته ما خلاصـــة: إن الواقع الذي نلاحظه اليوم أن العامية مق ضي عليها بالزوال والفارق بينها وبين الف صحى يـ ضيق يوما بعد يو ما، ويكفي أن نســـتمع إلى فلاحـ نا أو عاملـ نا في مجلس الأمة ومجالس الإدارة ليتضـــح لنا أن لغة الكلام العادي قد ارتفعت إلى مستوى الفصحى فهو مثلا يقول"هذا موضوع يهم جميع الفلاحين" أو الأرباح التي تم توزيعها بالنسبة لأغلب العمال.

فإذا تجاوزنا عن الإبدال الذي وقع للذال في ا سم الإ شارة، فإن العبارة كلها تـ صبح صحيحة. وهذا النوع من الرخص و الاختزالات موجود في اللغات الحية عند التخاطب.

ففي الإنجليزية مثلا: I am تنطق I'm و في الفرنسية نجد أن IL NE FAUT PAS FAIRE CE LA تنطق FAUT PAS FAIRE CA.

هذا بيان من أحد رواد كتاب المسرح في العالم العارف بواقع اللغة المتداولة فيه يرى ويلمس كيف بدأت العامية تسعى بخطى حثيثة للالتقاء بالفصحى وأعتقد جازما أن إنشاء أجواء مشبعة بالكلمات الفصيحة في مختلف البيان من شأنه أن يفصح كثيرا من الكلمات في العامية و ذلك بنشر التعليم في كل الأوساط ومن مختلف الأعمار، وتوفير وسائل التعليم السمعية البصرية واستعمال العربية المبسطة في وسائل الإعلام لأن السبب في انحراف الألسنة وبعدها عن اللغة هو إصابة الأمة بالأمية إصابات بالغة. إذ لم يستطع العالم العربي إلى الآن القضاء على هذه الآفة الخطيرة، فقد نشرت منظمة اليونسكو إحصائيات في الأيام الأخيرة أن عدد الأميين في العالم العربي قد بلغ واحدا و ستين مليونا، عشر هذا العدد من الأميين هو من نصيب الجزائر.

وبعد: فلما كانت العلاقة بين الفصحى والعامية علاقة تواصل، وتقارب وتفاعل والتقاء في نقاط تماس حيوية في أطراف الأوساط الاجتماعية فإن العناية التي ينبغي أن يوليها الباحثون لهذا الموضوع يجب ألا تقل أهمية عن اهتمام بقضايا العربية الفصحى، لأن الجدل الحاصل بين الفصحى والعامية هو جدل دلالي معرفي إيديولوجي، وسيميولوجي بين مختلفة الفئات في المجتمع الواحد...

سئل كونفيشيوس حكيم الصين عما سيصنع بادئ ذي بدء. إذا ما تكلف بأمر البلاد فأجاب: إ صلاح اللغة بكل تأكيد. تم سئل: لماذا؟ فأجاب قائلا: إذ لم تكن اللغة سليمة، فما يقال ليس هو المقصود و إذا كان ما يقال ليس هو المقصود، فما يستحق الإنجاز لن ينجز، وإذا لم ينجز ما يســـتحق إنجازه فإن الأخلاق والفنون يحل بهما الانحطاط. وإذا ما انحطت الأخلاق والفنون، فالعدالة ســـوف تنحرف، وإذا ما انحرفت العدالة فسوف يقف الناس مضطربين لا حول لهم، وعلى هذا يجب التخلي عن الاغتباط في القول. وهذا أمر يتفوق في أهميته على كل أمر.

بهذه الأهمية التي أولاها حكيم الصـــين للغة منذ وقت مبكر، ينبغي أن ننظر إلى الواقع اللغوي بمختلف مـ ستوياته في بلادنا نظرة علمية وذلك باتخاذ جملة من الخطوات نجملها فيما يلي:

- رصـــد الاســـتعمالات اللغوية وطرائق التعبير في المدارس والجامعات ووسائل الإعلام والأوساط السياسية، والمصالح الإدارية والمجالات الثقافية والفلكلورية.

- القيام بعمليات سبر يشكل قطاعا واسعا من الفئات والشرائح الاجتماعية لمعرفة مدى الاســـتجابة والفهم والآثار التي تتركها لغة الإعلام والخطب في الأفراد والجماعات.

- إ عادة النظر في النصـــوص اللغو ية والأدب ية المقررة في المدارس الابتدائية والثانوية واختيار نصـــوص أدبية واجتماعية للغة

راقية ومفهومة منتقاة من آداب أمراء البيان في القديم والحديث ومن الصحافة... وغيرها من المحيط الذي يعايشه التلميذ.

- القيام بمـ شاريع بحث تعمل على و ضع ر صيد لغوي متداول ومأخوذ من أصـــول لغوية فصـــيحة مشـــتركة بين مختلف جهات الجزائر. ليكون قاعدة ومصـــدرا لصـــياغة تراكيب لغوية مقررة في المدارس الابتدائية.

-وضـــع معاجم ومراصـــد لتطور دلالة الكلمات عبر التاريخ ولمعرفة الكلمة الجديدة التي تضاف إلى المعجم العربي.

- نشـــر التعليم في كل أذحاء الجزائر في الأرياف والجبال والـ صحاري للقـ ضاء على الأمية التي تقف عائقا أمام تو سيع دائرة الاتصال والتفاهم والتجاوب لقطاع عريض من هذا الشعب.

العمل على إيجاد مشروع لغوي تشترك في الخبرات العربية وتؤلف فيه الكتب النحوية لمختلف المراحل الدراسية على أن يضطلع بهذه المهمة خبراء في اللغة والتربية والاجتماع اللغوي وعلم النفس اللغوي لكي نكون قواعد اللغة أدوات لتنقل المتعلم بسهولة من التلفظ بالعامية إلى التعبير بالفصحى.